وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل السابع

أمهلت الرئيسة أحمد شهرا حتى يدبر شؤونه فكان يتردد إلى بيروت كثيرا وسعى لعمل بشروط تلائم أهدافه فلم يجد..

حاول ذلك عندما رأى إقدام، وقد ارتفعت حمّاها ارتفاعا هائلا.. كانـت يـده ترتجف وهو يناول سلمى القلم لتسجّل استلامها للرسالة.. ولم يـستطع أن يطيـل المكوث لئلا تفضحه عواطفه، وخصوصا وأن الغرفة غاصّة بالمريضات فانبرى خارجا على عجل، وذهب في ذلك اليوم إلى بيروت محاولا أن يجد عملا يوفّـق فيه بين حبه وواجبه، فلم يفلح.. وقرّ قراره أخيرا على السفر إلى العراق بطريقـة سرّية..

أما إقدام فلم تكن تُرى إلا دامعة العين، يرتفع صوتها بالغناء، فـلا تلبـث أن تبكي حين تجد شبها بين حالها وبين كلمات الأغنية..

أخذت تغني ذات ليلة وهي مرتكزة إلى حافة النافذة الجانبية.. ووقفت سـلمى بقربها تصغي.. كان القمر بدرا ومن بعيد "كمان" حنون يصدر أنّاتـه.. وتوقفـت إقدام عن الغناء فجأة وقالت:

- إنني أعرف ضارب الكمان.. شاب من بلدي، وهو صديق لأحمد، *سيبعث* إليّ أحمد بالرسائل عن طريقه..

وتغرغرت في عينيها دمعة حين ذكرت أحمد ثم تنهدت بأسى:

- أتراني يا سلمى سأشفى يوما وأتزوج أحمد ونسعد معا؟..

لم تكن إقدام ترى أحمد في تلك الفترة إلاّ لماما.. لقد أسـلم غيـره توزيـع الرسائل وبات مجيئه إلى القسم يثير الشبهات. ولقد لمحته سلمى مرات يدور حول الغرفة لعله يرى طيف إقدام من بعيد.. أما إقدام فكانت قلقة لا يقر لها قرار.. تلحّ على سلمى أن تذهب معها إلى الطريق خارج البوابة.. ولكن في كل مرة لم تكونا تستطيعان الإنفراد بأحمد.. والطريق غاصة بجموع المرضى.. فكان يمرّ بهما مع

رفاقه، دون أن ينبس بشفة فيشحب وجه إقدام وتثلج يداها، وتحسّ سلمى بأن كيان رفيقتها النحيل يرتجف بقسوة.. حتى كان اليوم الأخير والوقت راحة..

لقد لمحت سلمى إقدام خلال كلّتها ترفع وسادتها وتقبّل شيئا.. كـان وجههـا محتدما وعيناها منتفختان قليلا فعلمت سلمى أن الفتاة كانت تبكي.. وانتابها السعال كعادتها، ولكن النوبة كانت في ذلك اليوم أعنف من كل وقت مضى حتـى كـاد صدر المسكينة يتمزق ولم تلبث أن أصدرت صيحة.. كان بصاقها ملوثا بالدم..

وفي تلك اللحظة دخل أحمد يحمل رسالة ويقول مخاطبا إقدام:

- إنها من والدك..

ولكنه توقف فجأة إذ رأى إقدام لا تلتفت إليه وهي مكبة على وعـاء تنـزف دما..

ووقف أحمد قرب سريرها وقد عقد ذراعيه خلف ظهره، لوحة ناطقة للأسـى والجزع واليأس الصامت بينما أخذت الممرضة المسؤولة التي هرعت حين علمت بالحادث تزرقها إبرة كي تنتعش.. أما سلمى فلقد أشاحت بوجهها ومسحت عبـرة طفرت من عينيها..

وناول أحمد الرسالة إلى سلمى، فأدركت أنها منه وليست مـن والـد إقـدام، وهمس لها وهو يرتجف:

- إنني مسافر غدا، ولكني سأبقى في بيروت حتى أطمئن على صـحة إقـدام.. عنواني موجود في الرسالة..

تحسنت صحة إقدام في اليوم التالي وانقطع النزف.. وكانت سلمى جالسة على طرف سريرها فهمست لها إقدام:

- هل سافر أحمد؟.

- لست أدري.. إنه أعطاني هذه الرسالة لك..

قرأت إقدام الرسالة ثم طوتها ووضعتها تحت طرف وسادتها.. كانت ملامحها معقدة بحيث لم تستطع سلمى أن تقرأ في وجهها ما يعتمل في صدرها، ولم تلبـث أن همست بهدوء:

- عيب علي أن لا أكون مثله احتمالا.. لقد نزف يوما وتحامل على نفسه ليوزّع الرسائل كي لا يدري به أحد فيستبدل بغيره ويحرم من رؤياي.. حـدثني بـذلك صديقه ضارب الكمان.. أما هو فلم ينبس بشفة..

عادت إقدام بعد حين إلى نزهاتها على الطريق هي وسلمى، فالطقس المعتـدل كان يغري بالنزهة فتحمل كل منهما كتابا وتجلسان على صخرة كبيرة مرتفعـة، منبسط أعلاها سهلة المرتقى كأنما قد نحت عليها درج من جهة الطريق.. أما من الجهة الأخرى فلقد كانت تطل على واد عميق الغـور كثيـر الـصخور كثيـف الشجر.. وكانت سلمى تحبّ ذلك المكان لإطلالته الرائعة، وخصوصا عند المغيب حين تلون الشمس الغيمات بألف لون زاه مشرق قبل أن تـستريح علـى صـدر البحر..

في أصيل يوم كفّت إقدام عن الغناء، ووجمت لحظة تتأمل الوادي ثم قالـت بوجوم:

- إذا حدث لأحمد مكروه فسأقذف بنفسي من أعلى هذه الصخرة إلى الوادي..

وأنبتها سلمى:

- ما هذه الروح التشاؤمية يا إقدام؟.. كيف تتماثلين للشفاء وأنـت علـى هـذه الحال؟..

فقالت إقدام وهي تحبس دمعها:

- لم تصلني منه رسالة حتى الآن!..

وصمتت سلمى، كانت تعلم مالا تعلمه إقدام.. فلقد حضر "ضارب الكمان" ذات يوم إلى الغرفة يحمل مجموعة من المجلات إلى إقدام، وكانـت تـستحمّ وبـاقي الفتيات يتنزهن ماعدا سلمى التي كانت تطالع رواية في سريرها وتنتظر دورهـا للاستحمام..

وقال الشاب وهو يضع المجلات على كوميدينة إقدام:

- إن أحمد سجن..

وشهقت سلمى:

- كيف؟..

- قبض عليه بتهمة "الفاشستية"، والتحريض ضد الحكم القائم في العراق..
- كيف علمت بذلك؟..
- من الصحف.. هاهو ذا الخبر فاقرئي..

ورجته سلمى أن لا يخبر إقدام بذلك حتى لا تسوء صحتها، وكتمـت الأمـر عنها وأخذت تحاول أن تخفّف عنها كآبتها كلما انتابها القلق على أحمد..

- إن قلبي يحدثني أنه في ضيق.. هل من الممكن أن ينساني يا سلمى؟..
- كلا يا إقدام.. ولكن الغائب عذره معه.. أليس كذلك؟..

لم تحر إقدام جوابا.. وضعت رأسها على طرف الصخرة وأخذت بالبكاء..

كانت إقدام تمر بضارب الكمان على الطريق فتسأل بعينيها فيما إذا وصـلته رسائل من أحمد فيجيب برفع حاجبيه دليل النفي.. ولا تُرى إقدام بعـد ذلـك ألا دامعة مهتاجة الأعصاب، تنرفز وتبكي لأتفه الأسباب.. ولقد أساء التـوتر الـدائم على صحتها فأخذ وزنها بالنقصان شهرا بعد شهر، وكلما ذهبت إلى الأشعة عادت ممتقعة الوجه، يائسة النظرات.. ولم تعد تبالي بنفسها لكأنما حياتها لا تعنيها بعـد أن ذهب أحمد وانقطعت عنها أخباره..

* * *